2000 0414 - 0007_2

AS.SAFIR
Friday
April 14, 2000
Issue № 8577

السفير

الثقافي

الجمعة
١٤ نيسان ٢٠٠٠
العدد ٨٥٧٧
السنة السابعة والعشرون

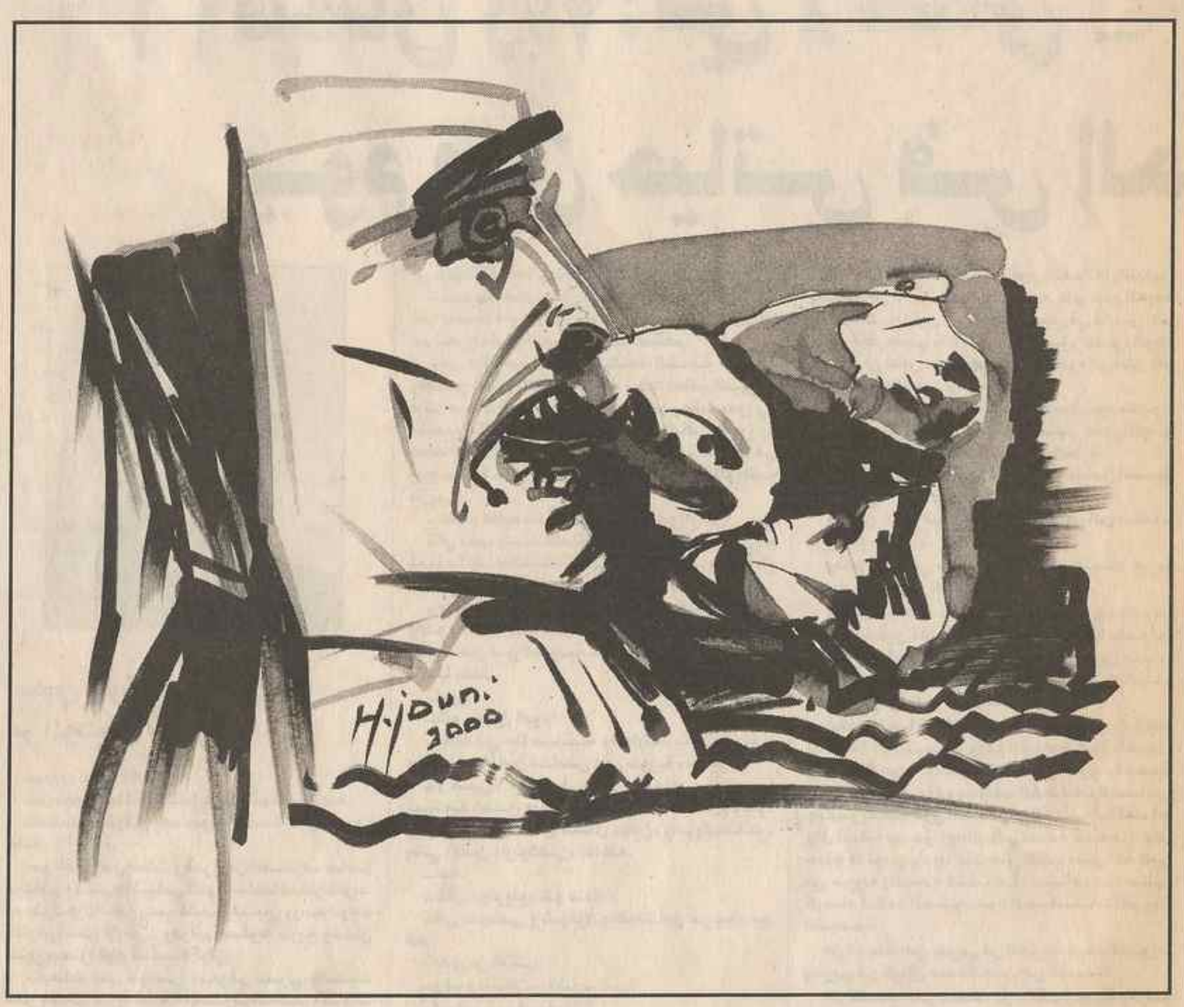

٣ انيسان ٧٥: كي لا ننسى - ٣ انيسان ٢٠٠٠: حتى لا تتكرر

إيمان حميدان يونس: موت كرسي

كان قد مرّ ما يقارب العام من عمر الحرب في ذلك النهار. رغم ذلك، بقينا نحن أولاد قرى الجبل نجلس على شرفاتنا العالية نتفرج على حرب تدور هناك على الساحل، في مكان ما يوازي سطح البحر. نتفرج من بيوتنا، التي بنيت بأحجار مصقولة قوية، على أمكنة قريبة بعيدة. نرى أضواءها ترتفع وتلمع، لكنها لا تصل الى سمائنا.. الى بيوتنا، إلينا. نقول لا بد انها بعيدة، تلك المفرقعات النارية التي تنير الظلام.

١١ آذار ١٩٧٦، يوم انقلاب الأحدب. هكذا أسموه في التلفزيون والجرائد والاذاعات. أذكر انه يوم خميس. أذكر أيضا ان الطقس كان غائما. كان

ربيعا مختلفا غائما ورماديا. حسبت ان الرماد يرتفع من ساحل المدينة، يرتفع من ضبابها: يأتي رماد المدينة إليّ بقوة الحرب. تدفعه دفعا نحوي كأنها تلبطه، كمولود لقيط. كأن الفضاء ضاقت به هناك، فجاء الى هنا.

أسموه يوم انقلاب الأحدب، وأسمّيه يوم مرضي الطويل الذي أجبرني على التغيب عن المدرسة والبقاء في الفراش. فراش ملاصق لنافذة عريضة تطل على الساحل.. على بيروت:

وحدي. لا أحد في البيت. انظر عبر النافذة وأنسى أنني وحدي. الفوطة المبللة بالماء البارد والخل ما زالت على جبهتي. دافئة. تركتها وقتا طويلا. في لحظة سهوي لا بد انني غفوت. وجه أمي التي غابت قبل الحرب، ورائحة الخل امتزجا بحلم متكرر حيث أراني أدخل نفس البيت، بيت إيلي حرب، صديقي الذي قُتل وهو أعزل منذ ستة أشهر. أراه كما رأيته في المرة الأخيرة. عيناه لم تكونا عيني ميت، بل عينا من أصابه النعاس فجاة فسها. أراني وسط أمه، أخته، عمته وجدته. لم أر والده في نومي ولا حتى شقيقه. حلم متكرر مليء بالنساء، نساء إيلي، أقدم إليهنّ اعتذاري. أعتذر عن موته... كأنني سببه.

لم يكن قد تراكم العنف بعد، لم يكن قد تراكم كما تراكم الغبار على الكتب التي كنا نقرأها لنناقشها في الاجتماعات. لم أعد أتكلم عن إيلي منذ حادث اختطافه وقتله. لم أعد أيضا أتكلم عما يجري في الخارج. صرت أكتب. إيلي صار غريبا. لُفظ بفعل قتله وابتعد. موته رسم الحدود وأعاد ترتيب الذاكرة. أعاد ترتيبها كما يليق بذاكرة معلنة أن تكون.

رسائل وأوراق مُزقت من الدفاتر رُسمت عليها عصافير ملونة وقطط وأزهار وشموع. هذا ما وصلني في بداية المساء من صديقاتي في المدرسة. رسائل مشتركة كتبتها وفاء وليلى وجومانة وسهى تخبر قصة الرصاصة الطائشة التي دخلت الصف. رصاصة «خطاط»، هكذا سمّيناها، دخلت عبر نافذة الصف واستقرت في ظهر كرسي فارغ يقع في نهاية القاعة قرب النافذة. كان الكرسي فارغا بسبب غيابي.

لم نعد إلى المدرسة منذ ذلك اليوم. أقفلت المدارس في منطقة عاليه وبدأت حرب الجبل. حروب صغيرة توزعت على حدود القرى وفرزتها. فرزت سكانها. صرت أعي حينها أنني درزية وأنني محمية في هذا المكان بالذات، حماية كي أحظى بها عليّ أن أخضع لامتحان انتماء وأن أنجح.

منذ ذلك اليوم أمور كثيرة تغيرت. طرقات أخرى نمشي عليها. منازل جديدة ننتقل إليها. واجهات بيوت وشرفات تُسوّر بأكداس من أكياس الرمل، شرفات فقدت وظيفتها، من عليها رأينا الحرب تحتفل بأضوائها في البعيد. لم نعد نراها الآن. انها هنا.

لا مدارس، لا بيوت، لا أهل. فقط نحن وطرقات جديدة. ساحات صادرناها كانت لأهلنا.. ما أجمل الحرب!

أزقة قديمة وطرقات استعادت وظيفتها. طرقات أخرى صارت مخيفة: خندق بوعتمة، عين الطاحون، المشرح، القلع، الشاغور...».

صار للطرقات معانٍ أخرى. طرقات كانت للهو، ما عدنا نمشي فيها. نمشي في طرقات أخرى، ليس بهدف المشي بل لنصل إلى أمكنة أكثر أمانا.

حرب في البعيد وحرب هنا. احتمال موتنا في أي لحظة واحتمال موت الآخرين. يموتون وتضيق مساحة حياتنا. موتهم احتل جزءا منها. في مساحة ضيقة حوصرنا بالموت وبغياب الآخرين.

تتشابه أيام الحرب. تختلف فقط بتفاوت وقع عنفها علينا. تذكر يوما لأنه حفر فينا. استقر في داخلنا واستوطن كحاسة جديدة.

دخلت رصاص مكان جدي الغائب، واستقرت في جسد الكرسي بدلاً مني. حين أذكر هذا اليوم أذكر أيضا أن إيلي قتل قبل ستة أشهر من هذا التاريخ، وأنني بقيت أحلم به.

ما أذكره جيداً أيضاً انه في ليلة اليوم الذي استقرت الرصاصة داخل الكرسي، لم أحلم بإيلي، ولم أعتذر من نسائه. لم أعد أحلم. فقط صرت أخاف.

عباس بيضون: شبح بيار

طال وقوفنا دون أن نحس ضجرا. فالزمن مر علينا كما يمر على الرمل والأمواج والحجارة. كنا هكذا دون انتظار، ولا أعرف كيف بلغنا امر أن نقترب من الدبابات فاقتربنا وضاعت الدبابات بين الجموع التي اخذت تطوف حولها كالحجيج. لا أعرف كيف بلغنا أن يفترق الرجال عن النساء، ولا كيف بلغنا أن تبقى النساء ويتابع الرجال على الشاطئ. سرنا جميعا بهذا الأمر غير المسموع، وبقوة خمس دبابات، مضينا في سيرنا البطيء على أرض الشاطئ دون أن يخطر لنا النظر إلى الخلف.

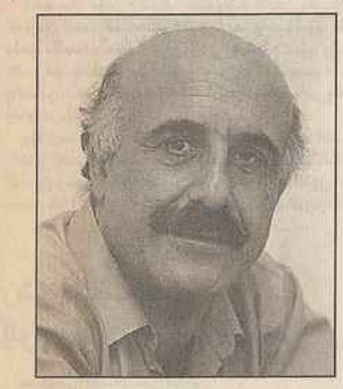

شعرت فقط بمقاومة الرمل الرطب والمتماسك لطرقة حذائي. بلغنا أول الموج وصرنا نخوض في الزبد. كنا في عرض هواء البحر وضوء الظهيرة الذي يلعب على طول لسان الشاطئ. أحياني قليلا هذا الهواء الحر، شاعرا بأنني أتخلص بذلك من قساوة

ثيابي التي غدت ثقيلة بنوم الملجأ ورطوبة ترابه. لاح لنا رتل دبابات وسمعت دوي انفجارات مكتوما. كان صوتا ينتهي بشبه اختناق ويتبدد كأن الرمل يمتصه ويمتص معه كل صوت آخر. كنا وراء الدبابات التي تقصف المخيم المقابل، نوعا من جدار بشري لحمايتها. فجأة رأيت امرأة جنبي. أخذتني من يدي وأخرجتني من الصف. أخذت خطواتي تنغرز في الرمل الجاف وأنا أتبعها عائدا.

جاءت دبابات كثيرة من جهة الرمل مسرعة ووقفت بنظام خلف الدبابات الخمس، تبعثر حولها شبان تغلبوا على صمت الجنود الذين فيها وتبادلوا معهم إشارات وكلمات. كان بعضهم يلكن بالعربية متوقعا أن تكون هذه لغة الإسرائيليين. انتشرنا في العراء وجلسنا على بسط مدت على الرمل. رأينا الدبابات بعد وقت، تنتظم أزواجا خلف بعضها وتخرج ببطء من خلف الاستراحة وتنعطف الى الشارع. رأيناها من على الرمل، تتابع الى الشارع الى ان تبلغ أطراف المدينة، تتوقف هناك وتتوزع على نصف قوس وتبدأ برمي مركز على أول بناية تواجهها. رمي منتظم: واحد، اثنان، واحد، اثنان، انتظام الخطوات العسكرية.

كان هذا - أكاد اقول - شيقا أن نرى، ونحن في أمان تام، الحرب نفسها التي دوختنا البارحة. لم تجب البناية. كانت مجرد بناية حمقاء وقبيحة من تلك البنايات التي طالما كرهتها. أخذت الدبابات تصيب تماما وكأنني أحركها بيدي. وقوفها الآلي جعلني أفكر بذلك.. تحركت الدبابة الأولى وتبعتها الأخريات وانسابت جميعا حتى بلغت المستديرة وانعطفت الى شارع منخفض، رأيناها تتوغل فيه وتقف امام بناية ع. س. أقدم بناية في اقدم أحياء المدينة الجديدة. بني يوم لم يكن الشاطئ قريبا إلى الحد. وبدا مع ذلك مذعورا من أن ينكشف للبحر فادارت مبانيه ظهورها للشاطئ وكأنها تقف جدارا دونه وأطلت بشرفاتها على الشارع. بدأت الدبابات ترمي على البناية. كنا نرى ذلك وكأنه في لوحة صينية. لم يخطر لي أن المدينة مكشوفة إلى هذا الحد. وبوسعنا أن نتابعها شارعا شارعا كأنها على شاشة كبيرة. بدت لي من هنا مبنية في ستديو، وبدا البحر عازلا ننظر منه الى المدينة كما ننظر من زجاج. طارت شرارة من بناية ع. س. واندفعت النار.

بدأت أشعر بضيق وكأنني اطرد عني ذكرى. لم أشعر في يوم أنني أودعت شيئا من حياتي في هذه المدينة التي عشت فيها كل عمري تقريبا. فهذه لم يوجد فيها محل يقترن بذكري. عشت بدونها تقريبا، ليس لديّ فيها مكان مفضل أو خاص. ولا أميز فيها بوضوح بين بيتي وبيوت أصحابي، وربما لا أميز بين نفسي وبينهم وحياتي وحياتهم. لم أكن واعيا للحيطان المقشورة ولا الرائحة النتنة. اعتدت على ذلك حتى انه بالتأكيد يملأ راسي. انها رائحتي وشبكية عيني. رأيت جيوشا من الذباب وتنفست كثيرا من روائح السمك المتعفن ولن أرى أو أتنفس بعد دون أن يكون أثر من ذلك راسبا في رئتي. ربما لذلك تبدو لي ذكرياتي هنا عائمة مبهمة كالأحلام. كأنها ولدت على الماء. باختصار، لا حاجة بي الى مدينة ويمكنني أن أتذكر - هل من حاجة للتذكر - بدونها.

مع ذلك شعرت وأنا أرى الدبابة تقصف بحنق. حنق استعصى فورا في رأسي. لم أعرف له سببا. لكنه لم يأت بالتأكيد من الشمس والتعب. سرى في الجميع على الأغلب شعور مماثل. انتشر بسرعة ان بيار ض. لا يزال في المدينة يرمي على الإسرائيليين. بعضهم قال ان بلال الفلسطيني هو الباقي. قالوا أيضا ان جماعة من الجبهة الحمراء رفضت الخروج. كان لدينا الجرأة لنفكر بذلك ونتكلم هكذا. بيار ض. وحده، يرمي وحده من نافذة إلى نافذة من مبنى الى مبنى، كأن المدينة قطعة واحدة، النار تدفقت من النافذة وشبحه خلفها وخلالها.

(*) نشرت النصوص حسب الترتيب الابجدي باستثناء نص الزميل عباس بيضون.